خطاب ما بعد الحداثة:مساءلة اليقين المعرفي وتفكيك أوهام العقل.

Postmodern discourse: questioning epistemic certainty and deconstructing the illusions of the mind.

د.جويني عسال *

تاريخ الإرسال: 2021/01/15	تاريخ القبول: 2021/06/01	تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

يطرح هذا البحث أسئلة إبستيمولوجية حول خطاب ما بعد الحداثة ، وما يحيل عليه من إشكالات مركزية تتعلق بالأفهوم والمرجع والمحمول المعرفي والخلفيات الفكرية التي أسست للوعي بمنظومة القيم والعلاقات والتصورات حول الذات والوجود الأنطولوجي والدازاين بتعبير هايدغر ،وفق منظور المراجعة والتجاوز والتفكيك وإعادة تأويل النصوص وبناء براديغمات جديدة ضمن مشروع نقد الخطابات وتأويل الأطروحات الفلسفية والفكرية الصارمة،مما يطرح فكرة القطيعة المعرفية باعتبارها وعيا بمسائل قراءة التراث البشري وخلخلة بنياته ومراكزه وتقويضه مراكزه الفكرية .

الكلمات المفتاحية: خطاب،ما بعد الحداثة،تفكيك، تأويل،العقل.

Abstract:

This research raises epistemological questions about postmodern discourse, and the central problems that refer to it related to concept, reference, cognitive predicate and intellectual backgrounds that established awareness of the system of values, relationships and perceptions about the self, ontological existence and Dasein in Heidegger's expression, according to the perspective of review, overtaking, deconstructing, reinterpreting texts and building new paradigms. Within the project of criticizing the discourses and interpreting strict philosophical and intellectual theses, which raises the

المؤلف المرسل:د.جويني عسال assel.jouini@univ-tebessa.dz

*جامعة العربي التبسي-تبسة assel.jouini@univ-tebessa.dz

idea of a cognitive rupture as an awareness of the issues of reading the human heritage and disrupting its structures and undermine its intellectual centers.

***Key words**: discourse , postmodern, deconstruction , re-interpretation ,mind.*

*** *** ***

مقدمة:

تأسس فكر ما بعد الحداثة على نقد المركزيات الكبرى لخطاب الحداثة وتدمير البراديغمات المصاحبة للخلل المفهومي وبناء نسق الأفكار ضمن حدود المساءلات ومراجعة الأصول الإبستيمولوجية والخلفيات المعرفية وتفكيكها وذلك قصد فهم المكونات الداخلة في تركيبها البنيوي وإعادة قراءة منظومة القيم المصاحبة لفلسفة الحداثة وما بشرت به من يوتوبيا التقدم والحرية والعقلانية وبناء الإنسان الجديد.

وقد اتكأ فكر الحداثة على شبكة مفاهيمية ارتبطت في تشكلها بمرجعية العقل والتمركز حول أنطولوجيا الذات،وأفضت في نظامها المعرفي الصارم إلى إقصاء كل أفهوم لا يستجيب لأطروحات المركز وسلطته الرمزية والمعرفية ،هذه الشبكة المفاهيمية هي نتاج تفكير العقل الإنساني ونظامه الإبستيمي.

انطلاقاً من هذا التصور تشكل وعي ما بعد الحداثة وفق تصور القطائع المعرفية ،فكان الخطاب الفلسفي قفزاً على منظومة الحداثة ومراجعها الصلبة وأطروحاتها الشمولية،مما أفضى إلى إعادة مفهمة الخطاب ضمن منظور التفكيك والهدم وإعادة القراءة.

ولهذا كان لابد من مساءلة خطاب ما بعد الحداثة وتأويله انطلاقاً من الأطروحات والمنجزات التي أسست للمشروع التنويري الجديد.

2. المساءلات المعرفية لمنجزات العقل الغربي:

لقد قام الفكر الغربي المعاصر ضمن خطاب القطيعة بمراجعة أشكال الخطابات الفلسفية وتفكيك ما أنتجه العقل وفكر فيه وتحول لديه إلى مرجع نهائي لا يمكن تجاوزه أو التشكيك فيه،"فالممارسة الفكرية حول اللوغوس أنتجت تمركزاً عقلياً صلباً جداً

أقصى كل ممارسة فكرية لا تمتثل لشروطه،لأنه ربط بينه ومعنى الحقيقة،وأنتج نظاما مغلقاً من التفكير"[1] شكل وعيه المصطلحي ومنظومته الثقافية ونسقه المفاهيمي.

وقد اشتغل الفلاسفة والمفكرون (ميشال فوكو،جيل دولوز، هايدغر، نيتشه، دريدا..) على صرح التراث الفلسفي الغربي وإنجازات العقل وشككوا في كثير من المفاهيم التي أرساها باعتبارها أرضية إبستيمولوجية لكثير من المسلمات المعرفية ،ونادوا بتحطيم صنمية هذا الفكر المسيج ببنية صلبة من النظام الفكري ،وأسسوا داخل نسقه أدوات تفكيك مراجعه وأوهامه. ولعل هذا الأمر قاد كانط إلى فهم "عمق الشروخ والانقسامات التي تعرض لها نظام المعرفة في العصر الحديث ،فكانط بهذا المعنى وباعتباره امتلك وعياً حاداً بهذه المسألة استشعر إلى حدّ كبير ضرورة مراجعة مهمة الفلسفة نفسها ،إذ أصبحت هذه الأخيرة عنده نظاماً عقلياً صارماً يخاطب بروح نقدية جذرية العلم والأخلاق والقانون والتاريخ"[2].

أقام مفكرو ما بعد الحداثة وفلاسفة التشكيك حواراً معرفياً مع منجزات الحداثة وأنظمتها الفلسفية ،فكانت علاقتهم بالتراث مبنية على نوع من القراءة الحفرية لا التخطي،ولهذا فإن نيتشه "رفض أن يتخطى هذا التراث أو يتجاوزه ،لأن التجاوز كان خليقاً بأن يبقيه سجيناً لمنطق التطور الخاص بهذا الفكر ،أو قل منطق الحداثة والميتافيزيقا ذاتها ،وإنما انكب نيتشه على هذا التراث يراجعه على طول تاريخه مراجعة

جذرية"[3] استخدم في ذلك القراءة الجينيالوجية التي تكسر صنمية الفكر وعنف الميتافيزيقا .

وإذا كانت الحداثة قد شككت في الفكر الإنساني التقليدي وعصفت بمنطقه وحدوده الإبستيمية ،وأرست دعائم فكرية جديدة قائمة على تأليه العقل ،و"اختلقت لنفسها تاريخاً خاصاً ،حاولت أن تفصله عن التاريخ الشامل أو الخام ،وأسمته بالتاريخانية باعتباره يرسم قطعيات التحقيب المعرفي التي يسند إليها قصة نشوء العقل وتمفصله العيني مع الواقع"[4] فإن ما بعد الحداثة كثورة معرفية أعادت تفكيك أوهام العقل وراجعت منجزاته وقيمه الأخلاقية ،وبلورت دينامية جديدة تختلف عن دينامية الحداثة وأطروحاتها ونسقها الإبستيمي ،وكل ما أفضى إلى نقد الحقيقة وأوهام الكليانية والشمولية والحقيقة وفكرة التقدم خاصة ،"فالمجال المعرفي للحداثة هو المجال الذي فيه

ترعرعت فكرة التقدم ،لقد نجد في ظهور فكرة ما بعد الحداثة نوعاً من التأزم لظاهرة التقدم التي أدت في الأخير إلى القبض على تلابيب الإنسان باسم التقدمية ،بل باسم الإنسانية"[5] .

إذ إن "دينامية الحداثة نشأت واستمرت كحركة دينامية عصفت بالتدريج بكل البنيات والذهنيات العتيقة وساهمت في إحداث نوع من القطيعة الجذرية مع كل ما هو تقليدي ومؤدية إلى بلورة تصور جديد للعالم مختلف كلياً عن التصور التقليدي ومحدثة سلسلة من الصدمات يوجزها مؤرخو الفكر في الصدمة الكوسمولوجية والصدمة البيولوجية والصدمة السيكولوجية وأخيراً الصدمة المعلوماتية"[6] التي أحدثت شرخاً في العقل الإنساني وأزالت الأوهام الميتافيزيقية وفككت السياج الدوغمائي.

إن فلسفة ما بعد الحداثة أعادت ترتيب المفاهيم وفصلت في الأنساق الفكرية التي جعلت من الذات الإنسانية أساس كل معرفة يقينية وماثلت بين هذه الذات

والموضوع ،حيث "لم تكتف ما بعد الحداثة بمجرد إعلان سقوط هذه الأنساق الفكرية الكبرى ،وإنما ألغت الذات الحديثة ،ومن ثمة فضت التقابل الشهير بين الذات Subject والموضوع Object الذي كرسته الحداثة الغربية"[7] وأعلنت نهاية أطروحات الحداثة بما تحمله من سياق إيديولوجي وفكري غذته المركزيات الكبرى ،وزالت بذلك كل الثوابت والمطلقات وحلت محلها مفاهيم اللايقين والفوضى والارتياب والنسبية وغيرها .

لذلك يمكن القول إن "هذا هو عصر النهايات والمابعديات (نهاية الإيديولوجي-نهاية التاريخ –نهاية الميتافيزيق-نهاية الحقيقة-نهاية البحث عن المعنى) ولذا لا توجد أزمة معنى ،وتحل اللاعقلانية المادية محل العقلانية المادية ،والاستنارة المظلمة محل الاستنارة المضيئة ،وتختفي تماماً القيم والثوابت والمطلقات (في المجال المعرفي والأخلاقي) ،ويصبح لكل فرد ثوابته وقيمه ودينه ،وتختفي المعيارية لتحل محلها لا معيارية كاملة ونسبية شاملة"[8] .إنه عصر الشك في كل معرفة تريد أن تكون بديلاً نهائياً ومطلقاً لما سبقها من تصورات ومواقف أنطولوجية حول المرجعيات والقيم والحقائق و"انهيار العقل الكلاسيكي بمختلف أشكاله سواء تعلق الأمر باللاهوت المسيحي أو النسق الهيجلي أو الإيديولوجية الماركسية أو النزعة الوضعية ،أي أننا إزاء واقع يعبر عن انهيار كل اللأنساق التي ادعت قول الحقيقة"[9].

2.2 مابعد الحداثة: إشكالية المفهوم وسؤال المعنى:

لقد اشتغل مفكرو وفلاسفة الاختلاف والتشكيك (نيتشه،هيدغر،فوكو، دريدا..) بتفكيك الأنساق الفكرية المؤسسة لمشروع الحداثة الغربية ،عبر نقد سياقاتها التاريخية وتحليل منظومتها وانعكاساتها على حياة الإنسان المعاصر،"وأنصار وأتباع ما بعد الحداثة يوجهون كثيراً من الانتقادات إلى إنجازات عصر وموقف(الحداثة) من الفكر والفن والسياسة والحياة ،وهو موقف يعلي من شأن العقل ويرى فيه مصدر كل تقدم في المعرفة وفي المجتمع ،وأنه هو وحده مصدر الصدق وأس المعرفة المنهجية ،وأنه وحده القادر على اكتشاف المعايير النظرية والعلمية التي يهتدي بها الفكر والفعل على السواء"[10] ويبقى الموقف من الحداثة مرتهناً بمدى استيعاب الأسس الابستيمولوجية التي تشكل المسار المعرفي المتواصل لخارطة المفاهيم القائمة على التحرر والتقدم والتنوير والمساواة والرفاه..وغيرها..

وهذا ما بشرت به الحداثة لمشروع بناء الإنسان المعاصر.و"بلورة تصور متكامل لنقد الميتافيزيقا والفلسفة ككل ،ومحاولة تفكيكها ومجاوزتها ،مجاوزة لا تعني إطلاقاً استبدال حقيقة بأخرى أو نفيها ،ولكنها تعني ببساطة تغيير نظرتنا إليها واستبدال السؤال التقليدي حول قول الحقيقة إلى السؤال عن مفعولات الحقيقة في الأقوال"[11].

ولعل الطرح المعرفي الذي يؤسس للنقد العلمي للحداثة يقوم على تفكيك الجهاز العقلاني والذاتي والفرداني والنسق الإنسانوي ،مما يؤكد أن خطابات مابعد الحداثة تتمحور حول الحفر الجينيالوجي بالمفهوم النيتشوي في النسق الداخلي المؤسس لأطروحات الحداثة، والشك في مفاهيمها ونتائجها ،"لقد صارت ما بعد الحداثة في بعدها الثقافي بوعي أو بدون وعي للأفضل أو للأسوأ مقولة تأويلية،أداة هيرمينوطيقية"[12].تعيد عمليات الفهم وفق القراءة الحفرية المتواصلة.

ولهذ "كانت أفضل طريقة لوصف ما بعد الحداثة بصفتها حركة فلسفية ،هو اعتبارها شكلاً من أشكال الشك الفلسفي "[13].

وتقوم المراجعات الكبرى لمنظومة الحداثة على تحليل المفاصل الكبرى لفلسفتها وقيمها ،باعتبارها مشروعاً لم ينته بعد كما يرى هابرماس ،في حين أن بعض المفكرين يؤكدون على نهايتها أمثال جان فرانسوا ليوتار الذي يرى كما "بأن مشروع الحداثة قد

سقط نهائياً بعد أن وصل إلى نهايته ،وأخفقت الحداثة في تحقيق وعودها،وعود عصر التنوير والعقلانية الغربية ،بتحقيق التطابق الكامل بين العقل والعالم"[14] .

وقد تراجعت فكرة مركزية الإنسان وألوهية العقل وتمزقت الذات الحديثة التي أعلن عن ميلادها مشروع التنوير الكانطي والكوجيطو الديكارتي حين تم بناء نظريات ذات طابع شمولي تؤكد على امتلاك الحقيقة النهائية والمعنى المطلق .

وقد انتكس الإنسان الحديث حين اصطدم كما أشار إلى ذلك جورج طرابيشي[15] بجراح بيولوجية وبسيكولوجية وفلكية أشار إليها فرويد في مقال له سنة 1917،تحدث فيه عن الجراح النرجسية التي مني بها الإنسان، الجرح الأول الكوسمولوجي تمثله الثورة الكوبرنيكية محطة هامة في المنظومة الفلكية ، تغير من خلالها وعي هذا الإنسان الكوني وتفككت مركزيته حين تغير المدلول المعرفي للنظام الكوني ،وحين أقر العلم أن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليس العكس كما كان سائداً في النظريات التقليدية .

والجرح الثاني البيولوجي حدث مع نظرية النشوء والارتقاء الداروينية التي ترجع أصل الإنسان إلى السلالة الحيوانية مما أسقط المنظور السامي للإنسان الذي كان يعتبر نفسه سيد العالم ،فألغت هذه الرؤية فكرة التعالي من خلال الإقرار أن أصل الإنسان قرد،

والجرح الثالث السيكولوجي يرتبط مع سيغموند فرويد الذي اكتشف جزءاً هاماً مظلماً في الإنسان وهو اللاشعور الذي لايعي منه شيئاً مما أكد على تراجع مركزية الإنسان واعتبار نفسه أنه مركز المعرفة .

وعليه فإن هذه التحولات الكبرى غيرت رؤية الإنسان الغربي لمشروعه الحداثي التنويري الذي لم يكن سوى تمفصلات كبرى ضمن سياقات تاريخية تطورت فيها الأبحاث العلمية ،قادت هذه التحولات إلى تأسيس براديغمات جديدة قائمة على الشك والنقد والتأويل والمساءلة "وإجمالاً فإن فلسفة ما بعد الحداثة يتعين تعريفها بوصفها صفة حديثة من المذهب الشكي ،مع اهتمامها بالتركيز على تقويض أسس النظريات الأخرى ومزاعمها بامتلاك الحقيقة"[16].وإقصاء كل معرفة لا تستجيب لشروط مركزية العقل.

2.2 مابعد الحداثة وتفكيك أطروحة المركزيات:

تتكيء أطروحات فلاسفة ما بعد الحداثة على أجهزة مفاهيمية تمارس بها مساءلة وتفكيك الأبنية المعرفية لخطابات الحداثة وسياقاتها التاريخية ومرجعياتها الإبستيمولوجية .

وتعتبر مرحلة الشك في أدوات العقل بداية فهم الخلل المعرفي الذي أصاب مفاصل الحداثة الغربية التي ارتبطت بمنظومة كاملة من المفاهيم والاكتشافات والوسائل وغيرها "ولعل أفضل وصف لتلك الحقبة التي أشرقت على الانتهاء هو عصر الوسائل الآلية أو الحداثة الثقيلة ،أي الحداثة التي تختص بكل ما هو ضخم، ترى أن الأضخم هو الأفضل ،والضخامة قوة والتوسع نجاحا"[17] .

إن عصر الحداثة هو عصر الآلات الثقيلة التي تفرض نسقا جديدا على الإنسان،من خلال تكريس المنفعة كقيمة في حد ذاتها، والعقل كأداة "في عصر الوسائل الآلية ،أي عصر الحداثة الثقيلة ،أو عصر العقلانية الأداتية وفق تعبير ماكس فيبر ،كان الزمن وسيلة محتاجة إلى من يسخرها ويروضها بحرص حتى يمكن تعظيم عوائد القيمة التي تمثلت في المكان"[18] وقد استند المشروع الحداثي إلى العقل باعتباره المعيار النهائي للمعرفة والوجود ،وهو بديل اللاهوت في الفكر التقليدي ،مما جعل فلسفة ما بعد الحداثة تشكك في منتجاته وأدواته ومنطلقاته المعرفية ،فلم تعد له تلك القداسة والتأليه.

إن العقل الذي آمن بقدراته اللانهائية في تفسير العالم وبخاصة بعد الثورات العلمية والصناعية والذي تجاوز المرجعيات الدينية باعتباره يمثل المرجع الوحيد والمطلق للتأويل الأنطولوجي للعالم ،هذا العقل لم يعد كذلك معياراً نهائياً لكل تساؤل معرفي.

تشتغل الفلسفة العقلانية على المجال الإبستيمي وفق تصورات ومنظور المركز والرؤية اليقينية للمعنى ،اتكاءً على الكوجيطو الديكارتي وعقلانية سبينوزا باعتبار العقل هو الجوهر المؤسس للمعرفة وله أسبقية المنظور الشمولي لكل سؤال.

إن الفلسفة العقلانية كمرجع ومركز للحداثة الغربية انبنت وفق المنظور الميتافيزيقي الذي يلغي كل خطاب لا يستجيب لشروطه ولا يثق بالمنظورات الفكرية الكبرى التي تدعي امتلاك الحقيقة، ولهذ جعل فرانسوا ليوتار انبثاق خطاب ما بعد الحداثة بنهاية النظم المعرفية الكبرى و"إذا كانت الحداثة تربط التقدم بالثقافة وتعارض الثقافات أو المجتمعات التقليدية بالثقافات أو المجتمعات الحديثة ،وتفسر كل حدث اجتماعي أو

ثقافي بمكانه على المحور التراث-الحداثة ،فإن ما بعد الحداثة تفصل ما ارتبط "[19] ،مما حدا بكثير من الفلاسفة إلى مراجعة ومساءلة هذا العقل وتفكيكه ونقده من الداخل على غرار نيتشه وهايدغر ودريدا ضمن نقد الحداثة وفلسفاتها العقلانية، "ولقد بدأ هذا النقد والرفض على حد سواء في مستواه النظري والفلسفي مع الفيلسوف الألماني فريدرك نيتشه في القرن التاسع عشر، وذلك عندما شرع في نقد أسس الحداثة الغربية وعلى رأسها العقل .وتدعم هذا التوجه النقدي للحداثة ومشروع التنوير بآراء الفيلسوف الوجودي مارتن هيدغر"[20] .

3.الأسئلة الإبستيمولوجية لخطاب ما بعد الحداثة

1.3: القطائع المعرفية وتفكيك بنية التراث الغربي:

نعرض في هذا الجزء من البحث أهم الأطروحات التي أعلنت نهاية فكر الماضي والعقل الميتافيزيقي ونادت بالقطيع الإبستيمية مع آليات التفكير التقليدي ،ودشنت أولى خطوات خطاب التقويض والتفكيك.

- نيتشه ونهاية الميتافيزيقا

يمثل نيتشه في الفلسفة الغربية نقطة تحول كبرى في نظام المعرفة والموقف النقدي تجاه خطابات التنوير والتقدم والحرية والأخلاق والتراث الفكري، حيث ارتبط مشروعه الفلسفي بالقطيعة المعرفية مع العقل الحداثي ومنجزاته وتراثه "فقد رفض أن يتخطى هذا التراث أو يتجاوزه ،لأن التجاوز كان خليقاً بأن يبقيه سجيناً لمنطق التطور الخاص بهذا الفكر أو قل منطق الحداثة والميتافيزيقا ذاتها ،وإنما انكب نيتشه على هذا التراث يراجعه – على طول تاريخه- مراجعة جذرية"[21] .

أعلن نيتشه في مشروعه المعرفي نهاية الميتافيزيقا - في يعتبره هايدغر آخر الميتافيزيقيين –باعتبارها مركز الحداثة الغربية، وعنها انبثق التساؤل المعرفي لإشكالات العقل وأبجديات التفكير الإنساني ،وقد مارس القطيعة مع منظومة الحداثة ومفاهيمها ،ومثل جهازه التأويلي مطرقة لتفكيك الفكر الغربي وأصبح منهجه الجينيالوجي رؤية معرفية لإعادة فهم الحضارة الغربية "مع نيتشه يتخلى نقد الحداثة للمرة الأولى عن الاحتفاظ بمضمونه التحريري ،إن العقل المتمركز على الذات يجابه للمرة الأولى المطلق الآخر للعقل"[22] ،فقد شكك نيتشه في النظام القيمي والأخلاقي لفلسفة الحداثة وعدميتها.

ولهذا "يرى هابرماس أن أسوأ مثالب الحداثة هي الاهتمام الشديد بالجانب المعرفي (العلمي) وتطويره وإعطاؤه الأولوية على حساب الجانبين الأخلاقي والفني"[23] وقد أعلن نيتشه موت الإله ،أي نهاية المركز والهويات والنماذج الشمولية وفكرة الثنائيات ،وطرح هذه المفاهيم في كتابه (العلم المرح 1882) معلناً تجاوز الميتافيزيقا التي كرست نظاماً معرفيا أخضع كل شيء لقوته وسلطته وألغى كل ما لا يتماشى وشروطه وقيمه .

يعلن نيتشه أن فكرة الإرادة ،إرادة الحقيقة وإرادة القوة التي تمثل البديل الأخلاقي للقيم التقليدية ،تمثل أساس الانتقال من التصور الميتافيزيقي إلى فكرة المراجعة وهذا ما قاده إلى موضعة الفكر الغربي داخل الفعل الجينيالوجي الذي يقوم بتأويل مقولات الميتافيزيقا .

وهذا "يعني أن الميتافيزيقا بما هي أخلاق لا يمكن أن تخضع إلا للنقد الجينيالوجي الذي يعتبر أن إنتاج الحقيقة لا ينفصل مطلقاً عن القيمة والقوة"[24]،وقد اعتبر هذا المنهج أداة حفرية في إعادة تفكيك المقولات الكبرى للحداثة التي تمثلت النموذج العقلاني بشكل مطلق "ولا شك"أن هذا التصور للحداثة ،هو عينه التصور الذي يستهدفه نيتشه بالنقد ،والذي مكنه من الوصول إلى الاستنتاج التالي:وهو أن الحداثة عبارة عن وهم وميتافيزيقا جديدة أتت لتسد الفراغ الذي خلفه خسوف الميتافيزيقا التقليدية ،وغياب معانيها الكبرى وغاياتها النهائية"[25] وبالتالي فإن إعلان نهاية الميتافيزيقا هو بداية تشكل خطاب جديد ووعي معرفي يرصد أهم الانقطاعات في الحضارة الغربية.

- جاك دريدا وتقويض التمركز حول العقل:

أعلن دريدا ثورته المعرفية الكبرى على الحضارة الغربية وتراثها الفلسفي من خلال مساءلة ومراجعة منظومة مفاهيمها والتشكيك في مرجعياتها وأسسها الإبستيمولوجية ،وهذا ما جعله يفكك العقل الذي أنتج هذه المعرفة وشكل مفاهيمها وأطروحاتها ،وبالتالي تقويض فكرة المركز .وقد" وجه دريدا نقداً جوهرياً إلى المقولات الفكرية التقليدية ،وسعى جاهداً لفهم التقسيم التقليدي بين الخطاب الفلسفي والخطاب الجمالي،وتستند رؤيته في هذا الأمر إلى كشفه :إن الحضارة الغربية نهضت حول العقل والمنطق ،وكانا معياراً حاسماً لتقويم أهمية كل شيء وأصالته"[26] مما جعله ينتج أجهزة مفاهيمية قادرة على تفكيك

المقولات التقليدية الصلبة في الفكر الغربي ،كمقولة التمركز حول العقل التي كرستها الميتافيزيقا مع أفلاطون وأرسطو حتى العصر الحديث .

حيث قوض مفاهيم التمركز التي أعلت من شأن مفاهيم فكرية وألغت أخرى لا تمتثل لها ولا تستجيب لنظامها المعرفي ،حيث أعلت من شأن الصوت على حساب الكتابة "ويزعم دريدا أن الحضارة الغربية بأكملها نهضت مستندة إلى افتراض أن المعنى الكامل للكلمة حاضر في ذهن المتحدث على النحو الذي يمكنه أن ينقله إلى المستمع أو يبلغه إياه دون أي انفلات له دلالته"[27].

وقد استند دريدا إلى مقولة الاختلاف (Différance) لإعادة فهم وقراءة الفكر الغربي ،حين تبنى هذه المقولة على خاصية الحضور والغياب ،حضور الدال وغياب الدلالة ،فالفكر الحداثي يرسخ الدال لأنه يمثل الحضور واليقين والحقيقة والشمولية..في حين أن ما بعد الحداثة تكرس الغياب غياب الدلالة وتأجيلها واختلافها المتواصل .

يؤكد دريدا من خلال تفكيكه للخطاب الفلسفي الغربي على قيم معرفية بديلة كالنسبية واللايقين والغياب والتأجيل والتشتيت والإرجاء فهذه المقولات وغيرها تحيل مرجعياً على خطاب جديد في الفلسفية الغربية لا يثق في المعرفة ،وإنما يجري تساؤلات متواصلة لنظمها ومرجعياتها.

2.3: ما بعد الحداثة وأسئلة التأويل :

- جان فرانسوا ليوتارومفهمة المصطلح

يعتبر ليوتار أول الفلاسفة الذين استخدموا مصطلح (ما بعد الحداثة) في كتابه الوضع ما بعد الحداثي ،والذي قدم فيه قراءة وضعية المعرفة في مجتمع الحداثة الغربي ،وتناول مرجعية المفاهيم وسياقاتها الفكرية وإشكالاتها الفلسفية كأطروحة غامضة ،حيث "ينتج عن ذلك أنه لا الحداثة ولا المسماة ما بعد الحداثة يمكن تحديدها وتعريفها ككيانات تاريخية مرسومة بدقة ،وأن الثانية تأتي دوماً بعد الأولى ،يلزم القول على العكس أن ما بعد الحداثي متضمن سلفاً في الحداثي ،بحيث إن الحداثة الزمنية الحديثة تحتوي في ذاتها إفراطاً في الإندفاع لتجاوز حالتها إلى حالة أخرى"[28] وسوف يستخدم ليوتار دراسة ألعاب اللغة من أجل تحقيق المهمة المستحيلة ظاهرياً المتمثلة في تقديم عرض عام للمعرفة في

القرن العشرين ،والدعوى بأن هذه الحقول يمكن تحليلها في ضوء ألعاب اللغة"[29] وقد أكد على أن عصر ما بعد الحداثة هو زمن آخر له سياقاته التاريخية والفكرية.

حيث إنه "بالشكل نفسه الذي تحتوي الحداثة فيه على وعد بتجاوزها ،فإنها ملزمة بأن تطبع وتؤرخ لنهاية حقبة وبداية أخرى"[30] حقبة تؤرخ لزمن النهايات ،نهاية التاريخ،نهاية الإنسان،نهاية الإيديويلوجيا،نهاية السرديات الكبرى، التقدم والحرية والمساواة والعقل.

ويمكن القول "إن غياب الأفق الكوني والتحرر العام في نظر هذا الفيلسوف يسمح لإنسان ما بعد الحداثة بالتأكد من نهاية فكرة التقدم والعقلانية والحرية.وأهم مظهر من مظاهر فشل الحداثة هو أن نصف البشرية يواجه التعقيد ،والنصف الآخر يواجه المجاعة .وإن الحروب التي عرفتها البشرية تركت الإنسان يعيش بلا أوهام أو أساطير ،أو وفقاً لتعبيره من دون نصوص سردية كبرى أو ميتا سردية Métarécits/Grands récits"[31].

وقد ارتبطت أطروحات ليوتار بقراءة الوضع ما بعد الحداثي للمجتمعات المعاصرة التي تمتلك رؤية معقدة نتيجة التحولات الطارئة على بنيتها وقدرتها على التحكم في المنظومات التقنية ،ومن خلال العلاقة بين الإطار المعرفي والمعرفة السردية ،تقوم السرديات ببناء المجال الأنطولوجي للمجتمعات ،مما أفضى إلى تنظيم المعرفة وفق قواعد الحكايات والأساطير .

إن هذا الأمر جعل ليوتار يتجاوز النظريات الشمولية ،حيث يقر أنه "ينبغي رفض السرديات الكبرى (أي النظريات الكونية الشاملة) للثقافة الغربية ،لأنها فقدت الآن مصداقيتها"[32] باعتبارها كانت تؤكد على يقينية المعرفة الحداثية ومشروعيتها ومطلقيتها استناداً إلى الحكايات الكبرى.

واتكأ في هذا النقد على حقول معرفية مختلفة ألسنية وسيميولوجية وفلسفة التفكيك ونظريات لغوية مختلفة كنظرية كألاعيب اللغة عند فتجنشتاين .

وقد أكد على أن ما تم التبشير به من خلاص الإنسان لم يكن سوى زيادة في الاغتراب والعدمية والتشيؤ ،"ولقد أدى تبني المنظور التداولي للمعرفة بليوتار إلى استنتاج أن الحكايات الكبرى فقدت مصداقيتها ،وأن أفولها ناتج عن ازدهار التقنيات والتكنولوجيات منذ الحرب العالمية الثانية"[33] وقد ربط ليوتار بين السرديات الكبرى والنظام اللغوي التداولي لتفسير العلاقات والممارسات المعرفية المختلفة .

- ميشال فوكو: حفر جينيالوجي في أشكال الخطاب:

لقد انطلق ميشال فوكو في فلسفته من قراءة عميقة لأطروحات كانط حول الحداثة والتنوير والنقد الجذري ،حيث "يقدم ميشال فوكو تفسيراً إبستيمولوجياً لموقع كانط في تاريخ الفلسفة بشكل عام وموقعه في سياق الحداثة بشكل خاص ،فالحداثة في نظره كعصر متميز تمثل إبستيماً جديداً امتلك حساً غير مسبوق بالحاضر"[34] .

ويتموقع فوكو ضمن فلاسفة النقد الجينيالوجي لكل فكر يسعى أن يكون أطروحة مركزية داخل السياق التاريخي لحداثة الغرب ،على الرغم من أنه "ليس من اليسير تصنيف فلسفة ميشيل فوكو ،والسبب في ذلك ليس فقط في اختلاف الباحثين في قراءة وتصنيف هذه الفلسفة إلى بنيوية وما بعد البنيوية وما بعد الحداثة ،وإنما إسهام الفيلسوف نفسه في تقديم أكثر من تصنيف لفلسفة تحت دعاوى عديدة ،منها قوله بالقطيعة ودعوته إلى الحق في الاختلاف"[35] وتجاوزه للطرح البنيوي في علاقته بمفهوم النسق والخطاب ،وذلك "عندما تخلص من البنيوية باسم التاريخ والخطاب"[36] .

وقد استفاد فوكو من الجينيالوجية النيتشوية ووظف أدوات معرفية لقراءة الخطابات والنصوص باعتبارها مهيمنات فكرية وفلسفية تسهم في إعادة تفسير التاريخ وأشكال الأنطولوجيا ،"ولقد أبدى فوكو شكاً كبيراً بالتاريخ الشامل والكلي والخاضع للاستمرار واستبدله بتاريخ عام يقوم على القطائع والانفصالات"[37] ويعري تأويلياً مركزية الذات باعتبارها نسقاً مفاهيمياً .

ولهذا اعتبر النص الكانطي أطروحة قائمة على تأويل ترانسدنتالي للحاضر ،فيما يعلن عن حدود الفهم ونزعة النهايات وتقويض أطروحة الإنسانوية وموت الإنسان في خطاب المعرفة الحديثة أي باعتباره موضوعاً مفكرا فيه لا ذاتاً/ مركزاً ونواة تستقطب خلايا العالم ،"ولا شك في أن نقد ما بعد الحداثة ،ومنها نقد فوكو للتاريخ تزامن ونقد النزعة الإنسانية ،ولقد كان فوكو خصماً عنيداً للنزعة الإنسانية ،ولم يتردد في التصريح بموت الإنسان"[38] ونهاية التعالي وتحول الإنسان إلى معرفة وموضوع.

و "هكذا تبدو في تحليلات فوكو أن الإنسان الحديث لم يظهر كموضوع أساسي للمعرفة إلا ليواجه بالبعد اللاإنساني للحياة وللطبيعة التي تتجاوزه"[39] وتؤول الإنسانوية في ثقافة ما بعد الحداثة خطاباً ينزع نحو الاختفاء والتماهي والتراجع ،وتطرح ثقافة بديلة

وجديدة تعلن أركيولوجيا نهاية الإنسان بالمفهوم الكلاسيكي وظهور الإنسان المعرفي الجديد،الذي "تنظر إليه العلوم الإنسانية باعتباره كائنا رمزيا يعيش وينتج ويمارس وجوده اللغوي ويتمتع بكينونته"[40]،ولهذا تحول في منظورها إلى موضوع وتخلى عن كونه ذاتا متعالية.

خاتمة:

في نهاية هذا البحث نشير إلى أن خطاب ما بعد الحداثة مشروع قائم على التفكيك المتواصل لأطروحات الفكر البشري ومنجزاته وقيمه ويقينياته العلمية ،سواء أكانت مراجعة وتقويضاً للحداثة ومرجعياتها أم إعادة تأويل للمعنى ولشبكة المفاهيم المصاحبة للعقل ،أم هي الحداثة في حدّ ذاتها باعتبارها –كما يرى هابرماس- مشروعاً لم ينته بعد .

هذا التصور يفيد أن الفكر الغربي مع اختلاف أدواته القرائية وآلياته النقدية ،فإنه يتموقع ضمن حدود النقد المتواصل للعقل ولمشروعه التنويري ، وانطلاقا من الإشكالات المعرفية المطروحة،كان لابد من إجراء حفر فوكوي في إنجازات ما بعد الحداثة وخطابها الفلسفي ،وخلخلة الأسئلة المركزية حول كبرى النظريات التي أعادت قراءة كل الأطروحات والمرجعيات وتاريخ الثقافة الغربية .

ولذا يمكن أن يكون الموضوع في إطار تساؤلات معرفية هامة حول مفهمة خطاب ما بعد الحداثة وإشكالات التأسيس الفلسفي لأهم النظريات ،وعلاقة الحداثة بما بعد الحداثة ،وكيف صاغها الفلاسفة في أطروحاتهم ،وهل هي مراجعات فكرية أم تجاوز لنظم معرفية صلبة،أم أن الإشكال يتموقع في فكرة القطائع الإبستيمولوجية بالمفهوم الباشلاري،وقد طرحت أسئلة كثيرة ومتنوعة حول إشكالية ما بعد الحداثة وخطابها التفكيكي في كثير من الدراسات والأطروحات الغربية والعربية،وأصبحت بمثابة تأسيس جديد لوعي معرفي بمدى أهمية مراجعة إنجازات العقل البشري وسنشير إلى الكثير منها في هذه الدراسة.

الهوامش:

1 -عبد الله إبراهيم ،المطابقة والاختلاف،ج1مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع، ط1،الرباط،المغرب، 2017، ص520.

2 -فريد لمريني،الفلسفة والنقد،مراصد إبستيمولوجية،دار التنوير للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان، ،ص133-134. 2016بيروت ،لبنان،

3 -أحمد عبد الحليم عطية،نيتشه وجذورما بعد الحداثة،دار الفارابي، ط1،بيروت،لبنان، 2010، ص124.

4 -مطاع صفدي،أية عقلانية ما بعد الميتافيزيقا، مجلة الفكر العربي المعاصر،مركز الإنماء القومي،بيروت، لبنان ،2009، عدد148 -149 ،ص11.

5- عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة،دار الفكر،ط3، دمشق،سوريا، 2010،ص 213.

6- محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، دارتوبقال للنشر، ط2، الدار البيضاء،المغرب،2007، ص63.

7- أحمد عبد الحليم عطية،نيتشه وجذورما بعد الحداثة ،ص 134.

8 - عبد الوهاب المسيري،دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية ،ط1، القاهرة،مصر، 2006، ص117.

9- محمد الشيخ وياسر الطائري،مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة،حوارات منتقاة من الفكر الألماني المعاصر،دار الطليعة للطباعة والنشر،ط1،بيروت، لبنان، 1996،ص 16.

10 -أحمد عبد الحليم عطية،ليوتاروالوضع ما بعد الحداثي،دار الفارابي،ط 1،بيروت ،لبنان، 2011،ص14.

11- عمر مهيبل، من النسق إلى الذات، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر، 2007، ص 40.

12- إيهاب حسن، تحولات الخطاب النقدي لما بعد الحداثة،تر/السيد إمام، دار شهريار، ط1، العراق، 2018، ص 36-37.

13- ستيوارت سيم،دليل ما بعد الحداثة،ج1، مابعد الحداثة: تاريخها وسياقها الثقافي، تر/وجيه سمعان عبد المسيح، ط1،القاهرة، مصر، 2011، ص 11.

14 -أحمد عبد الحليم عطية،نيتشه وجذورما بعد الحداثة،ص34.

15- جورج طرابيشي،هرطقات عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، ، ط1 بيروت، لبنان، 2006، ص93.بتصرف

16- ستيوارت سيم،دليل ما بعد الحداثة،ج1، مابعد الحداثة: تاريخها وسياقها الثقافي،ص 26.

17- زيجمونت باومان، الحداثة السائلة،تر/ حجاج أبو جبر، الشركة العربية للأبحاث والنشر ،ط1، بيروت لبنان، 2016، ص 176.،

18- المرجع نفسه، ص181-182 .

19- ألان تورين،نقد الحداثة، تر/أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، ط1 ،مصر، 1997،ص247.

20- الزواوي بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير، موقف الأنطولوجيا التاريخية،دراسة نقدية،ط1،بيروت، لبنان،2009،ص15.

21- أحمد عبد الحليم عطية،نيتشه وجذور ما بعد الحداثة،ص142.
22- يورغن هابرماس،القول الفلسفي للحداثة، تر/فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة ،ط1،دمشق سوريا، 1995 ، ص155.،
23- جان فرانسوا ليوتار،في معنى ما بعد الحداثة،نصوص في الفلسفة والفن،تر/السعيد لبيب، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2016، ص202.
24-، أحمد عبد الحليم عطية،نيتشه وجذور ما بعد الحداثة ، ص154.
25- محمد أندلسي، أفول المتعالي وأزمة الميتافيزيقا الغربية، أو هايدغر من خلال نيتشه، دار التنوير للطباعة . والنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2015، ص 96
26-عبدالله إبراهيم،المركزية الغربية،إشكالية التكون والتمركز حول الذات(منظور نقدي)،المركز الثقافي العربي، ط1،الدار البيضاء، المغرب، 1997، ص 316.
27-ستيوارت سيم،دليل ما بعد الحداثة،ج1، مابعد الحداثة: تاريخها وسياقها الثقافي،ص 15.
28-جان فرانسوا ليوتار،في معنى ما بعد الحداثة،نصوص في الفلسفة والفن،ص71.
29-جيمس وليامز ،ليوتار نحو فلسفة ما بعد الحداثة،تر/إيمان عبد العزيز، المجلس الأعلى للثقافة ،ط1، القاهرة،مصر، 2003،ص 48.
30-جان فرانسوا ليوتار،في معنى ما بعد الحداثة،نصوص في الفلسفة والفن،ص 72.
31-الزواوي بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير، موقف الأنطولوجيا التاريخية،دراسة نقدية، ص16.
32-ستيوارت سيم،دليل ما بعد الحداثة،ج1، مابعد الحداثة: تاريخها وسياقها الثقافي، ص11.
33-الزواوي بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير، موقف الأنطولوجيا التاريخية،دراسة نقدية، ص18.
34- فريد لمريني، الفلسفة والنقد، مراصد إبستيمولوجية، دار التنوير للطباعة والنشر ،ط1، بيروت ،لبنان، ، 2016، ص134.
35-مدخل إلى فلسفة ميشيل فوكو،دار الطليعة، ط1، بيروت، لبنان، 2013، ص213. الزواوي بغورة،
36- المرجع نفسه، ص214.
37-الزواوي بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير، موقف الأنطولوجيا التاريخية،دراسة نقدية،ص122.
38-المرجع نفسه، ص123.
. 39-المرجع نفسه،ص164
40- Michel Foucault,Les mots et Les choses .Une archéologie Des sciences Humaines , Éditions Gallimard, Paris, France,1996,p362.